نجم معين

للكاتبة الامريكية
بيرل باك
ترجمة
عمر فاروق حسنى

استيقظ فى فجر ذلك اليوم من أيام عيد الميلاد ، ولفترة وجيزة لم يستطع أن يتذكر أين كان ثم زحفت حرارة الطفولة الى ذهنه النعسان • لقد كان هنا فى مزرعته ، فى منزله القديم ، وفوق رأسه سقف غرفته القديمة بكتله الخشبية المهشمة • لقد كان بالأمس وبالأمس فقط ، حينما أصر على العودة الى البيت على هذا الوجه ولقد نفذ عزمه على الرغم من الثورة الاجماعية المكبوتة من جانب أسرته ، فقد صاحت ابنته آن « ولكن يا أبى ، أتذهب للمزرعة الآن ؟ فى ليلة عيد الميلاد ؟ » •

وقد كان احتجاجها مصحوبا بغضب متطاير الشرر فقابلها بغضب مثله قائلا « لقد مرت سنين عديدة دون أن أطلب أى شىء منكم » •

ونطق ابنه قائلا « عندى موعد يا أبى » •

فأجابه فى حزم « سوف تلغى موعدك يا هال » •

واستدار عن ولديه الصامتين ، الغاضبين الى زوجته هيلين وقال لها : « لقد ذهب عيد الميلاد عن هذا المنزل » •

فابتسمت فى صبر وقالت : « لقد اعتدت على تصريحاتك الكبيرة، ياعزيزى •• وبقيت الأمور على ما هى عليه تقريبا منذ انتهاء الحرب ، لكن كل شى قد تغير ، وهذا ما لا مفر منه » •

فقال فى اصرار « ان الأساسات لا لا تتغير ، ونحن يجب أن نعود الى كياننا كعائلة وسوف أعد السيارة فى ظرف ساعة » • وكانت صيغة الأمر ظاهرة فى نبرات صوته • فقد تعود على تولى القيادة أثناء الحرب • ولم يكن شأنه الآن أقل من ذلك فى هذه السنين التى تجرى فيها أبحاث الذرة على وجه مستمر • فقد كان معتادا على الطاعة فى معمله الكبير من جانب العلماء ولم يمكث ليسمع المزيد من الاحتجاج فى منزله • واذا كانوا يعلمون تمسكه بالمواظبة الدقيقة فقد تجمعوا فى ظرف ساعة ، وفى سكون تام ، استعدادا للرحلة الطويلة الى المزرعة •

حسنا ، لقد أطاعوه على الأقل • وها هم هنا معا ، بعيدين أميالا عديدة عن مواطن الرقص الى ساعة متأخرة والشرب الكثير • وعما يمقته من ألوان العبث المتلافة • ولقد كان ذلك يوم عيد الميلاد • وخلال هذا اليوم سوف

يستعيدهم الى جانبه مرة أخرى بالتأكيد، لأنه كان قد فقدهم بطريقة ما خلال هذه الأعوام التى كان منقطعا فيها الى عمله ٠

ان اسمه وشهرته، أرنولد ويليامس، العالم فى أبحاث الذرة ، أحـد الثلاثة الأعلام فى العالم ، تلك الحقيقة تغلبت عليهم ـ بل تغلبت عليه الى حد ما ٠ فان علماء من كل البلاد كانوا يتجهون اليـه طلبا للنصيحة والاقتناع ، وازاء سرعة اذدياد نمو العلم فقد اضطر الى تكريس كل وجوده لأبحاثه ٠

كان هذا واجبه طبعا ، أثناء الحرب عندما كانت تجاربه ملكا لحـكومته ، ولكن الخط الفاصل بين الواجب ونشوة سرور النجاح فى العمل لم يكن بهـذه الدرجة من الوضوح بعد انتهاء الحرب ٠

وبينما كان يواصل السير فى طريقه على حدة كان أولاده قد كبروا ، ومن المحقق أن هيلين أصبحت أكبر سنا مما كان ينبغى ، فولت البهجـة القديمة المتبـادلة بينهما ٠ وأمس ، فى منزله القائم على بعد مسافة يسيرة من معمله فى الجامعة ، أدرك فجأة أنه يكون من شأن مايجرى حوله ، وبالرغم من المشتريات التى تمت فى آخر لحظة ومن وجـود شجرة صناعية ، لم يكن الجو جو عيد الميلاد ٠٠٠

لقد تذكر أن ، ابنته ، البالغة الجمال الدافقة الحيوية بعيدة عن المرح تندفع نحو التليفون ، ليخيب أملها على الدوام فانه لم يكن أبدا الصوت المنشود ٠٠٠ ولكن فلمن كان الصوت الذى تنصت لسماعه ؟ آه ، يا آن ، أيتها الابنـة المحبوبة ، لقد كان من أجلها كل شىء ما أراده من العزلة اليوم مع عائلته ٠

وماذا عن النجم ؟ فى صباح أيام عيد الميلاد • عندما كان صبيا ينام فى هذا السرير ، كان هناك نجم معين يبدو مرتفعا فوق مخزن الغلال • وكان يراه دائما عندما يستيقظ مبكرا عن عادته ، لكى يستطيع الاشراف على الانتهاء من عملية حاب اللبن قبل أن يفتحوا الابواب الى البهو الذى تنتصب فيه شجرة عيد الميلاد • نجم عيد الميلاد . عندما فكر فى ذلك طوح بالغطاء وقفز من الفراش— يرجح أن يكون ذلك هراء ، فمن الجائز ألا يكون النجم هناك الآن •

وعندما كان يبحث عن ملابسه القديمة فى المخدع ، خطر له أنه (الى حد ما) كان ذلك النجم هو المسئول عن توجيه حياته ، فلقد أرشده الى السموات •

« ماذا تريد فى عيد الميلاد يا بنى ؟ » كان هذا هو السؤال الذى وجهه اليه أبوه عندما كان فى الرابعة عشرة من عمره •

فأجاب « اننى أريد منظارا مكبرا (تليسكوب) » •

فحملق فيه أبوه ، فى حدة وفضول تنطق بهما عيناه الزرقاوان الصغيرتان القائمتان فوق لحيته الشعثاء •

وقال « ولأى غرض » • فأجاب « لكى أنظر به الى النجوم » •

فتمتم أبوه ، بدون ارتياح كما كان يبدو ولكن فى صباح عيد الميلاد كان يوجد تحت الشجرة طلب لشراء منظار مكبر عن طريق البريد • وهذه هى الهدية الوحيدة التى كان يريدها • ومع تلهفه على حلول الليل اضطر الى الانتظار حتى خيم الظلام • وعندئذ رفع منظاره الى عينيه وأمعن النظر الى النجم •

ويا لخيبة الأمل • لقد كان أكبر ، وأكثر لمعانا ، الا أنه مازال بعيدا كما كان على الدوام •

وفى اليوم التالى تطلع الى الشمس من قبيل التجربة المحضة ، ولدهشته رأى بقعا فوقها ، وأدى هذا الى شراء كتاب ، للتعرف الى أسرار السماء ، وهكذا بدأ اهتمامه بالأشعة الكونية •

وها هو الآن يرتدى سروال التزحلق على الثلج ، وسترة من جلد الخراف وحذاء مبطنا بالفراء وعند مغادرته الغرفة صفق الباب وراءه ، حينئذ بدا عليه الجزع ، وتمنى أن تكون هيلين قد ظلت نائمة • ولو أنه أيقظها ، فلسوف تقابله بالحلم كما كان شأنها معه فى الواقع منذ أن بدأت جولاته الغامضة (وهى التى بدأت منذ زمن طويل لأن نوبات الهامه المعروفة كانت تأتيه بالليل كما كانت تأتيه بالنهار) وجعلت محتوما عليه أن ينام بمفرده فانه لم يكن يطيق أية مقاطعة أثناء انشغاله بنظرية جديدة ولا يهدأ له بال حتى يفرغ من متابعتها • وفى اليوم الذى تمت خطبته لهيلين قال لها « عندما تتزوجيننى ، فانت لن تتزوجى رجلا ، بل نوعا من •• من الوحوش » • وعندئذ ضحكت ولم ترد ، ثم حدث فى أحد الأيام أثناء الحرب ، عندما كانوا يقيمون فى احدى ثكنات لوس ألاموس ، أنها نظرت اليه فى تفكير ، فسألها « ماذا تعنى هذه النظرة ؟ »

فقالت « من المحتمل أن تكون نوعا من الوحوش » •

ولكنه ضحك اذ ذاك ، ولكن الكلمات عادت اليه الآن وهو يخطو خارج باب المطبخ• وكان البرد حادا قارسا، وزاد

من شدة وطأته أن المنزل كان دافئا ، اذ كان قد وضع به مدفأة بترولية منذ عدة سنوات عندما كان الأطفال صغارا ، ولكن عندما كان صبيا لم تكن سوى صفوف ضخمة من الخشب • وهى مازالت هناك ، على سبيل الذكرى ••

وفى أثناء سيره فى اتجاه مخزن الغلال كان الجليد يتهشم تحت أقدامه• وكانت السماء صحوا، والنجوم المتلألئة تلمع خلال الهواء الثلجى • ونظر الى أعلى ، منقبا بنظره فى السماء • هاهو نجمه يبدو بوضوح • فهاهو معلق فوق حافة سقف المخزن ، ليس بالضخامة التى كان يتصورها • ولكنه هو بالذات دون أى ريب •

لقد صورته الأعوام أشد ضخامة وأكثر رونقا مما هو عليه الآن • أو لعله كان كذلك بعين خياله فى عهد الطفولة • الا أنه كان هناك يتألق حقيقة فى ثبات ، كما كان يتذكره •

ووجدت قدماه الأخدود المألوف فى الممر تحت الثلج • وبينما كان واقفا فى الهواء الراكد غمره الاعجاب القديم ، الاعجاب بالكون • لقد عرفه منذ سنوات خلت ، من طريق النجم الوحيد • لقد فقده فى أثناء عجلة وثورة شبابه فى السنين التى كان يعمل فيها من أجل عيشه نهارا فى معمل خاص بصناعة كبيرة ، وفى أثناء عمله فى معمله الصغير ليلا • درس أسرار أشعة الشمس المتفجرة ، وكان ينتهز فرصة أجازته الشحيحة ليقوم برحلاته التى كان يحج فيها الى أينشتاين فى ألمانيا وزاذرفورد فى انجلترا • وبين التردد والاقدام ، جال بعيدا عن هذا المكان المتواضع الذى يقف فيه الآن ليحملق مرة أخرى فى النجم فى صباح عيد الميلاد • ولقد كان رجلا معتدا بنفسه محبا للجدال الى اليوم الذى أصابه فيه الرعب وحلت به مذلة جديدة عندما تكشفت له نواة الذرة فى مكان خفى فى الصحراء • طاقة لا حد لها تجمعت فى شكل فى منتهى الصغر لدرجة أن الأعين لاتستطيع رؤيتها • نعم ان هذا النجم الذى حملق فيه الآن تولى هدايته فى حياته •••• وماذا بعد ذلك ؟ أين سينتهى به الطريق بعد صباح هذا العيد ؟

وفجأة ارتجف وتذكر أنه كان واقفا فى الثلج حتى منتصف ساقه • فقد سقط أثناء الليل هذا المسحوق الناعم الذى كان يكسو كل الفروع والأغصان، وكان الهواء الذى يهب من البحيرة باردا ثلجيا • واستدار فى تردد وعاد أدراجه الى المنزل ودخل الى المطبخ •

كان النور مضاء عندما فتح الباب وكانت هيلين واقفة أمام موقد الجاز ملتفة فى رداء الحمام الصوفى الأحمر تعد القهوة •

وقال وهو يقبلها فى وجنتها « عيد ميلاد سعيد » • وسألها «هل أيقظتك؟» فقالت وهى تدلك خدها « انك بارد كرجل الثلج ، انك لم توقظنى فانى لم أستطع النوم » •

هل استغرق عيدالميلاد كل حواسك؟

هزت رأسها قائلة : « اننى لا أنام جيدا كما اعتدت من قبل » •

وأحضرت قدحين على المائدة وصبت فيهما القهوة ، وسألته « هل تريد تناول طعام الافطار الآن ؟ » •

قال « كلا ، ولكنى سأتناول القهوة الآن » •

وجلسا ، وأخـذت ترتشف قهوتها ببطء فى حين أنه ابتلع جرعة ساخنة ·

وقال : « ما أطيب هذا ـ لقد كنت أشعر بالبرد طوال الطريق » ·

وسألته « ماذا كنت تفعل فى الخارج فى مثل هذه الساعة ؟ » ·

فأجابها « ماذا تقولين لم علمت بأننى خرجت لمشاهدة نجم ؟ » ··

فقالت « لقد مضى زمن طويل منـذ كنت تهتم بالنجوم » ·

ونظر اليها ، ورآها تبدو متعبـة تعبا بالغا هـذه الزوجة الرقيقة وقال « قد كان من الأفضـل لو لم نحضر للمزرعة · فلعله كان فى ذلك مشقة أكثر مما تحتملين، ألا تشعرين بأنك على مايرام يا هيلين ؟ »

فأجابته « أنا بخير ـ ولكن الأمر لا يعدو التقدم فى السن على ماأظن » ·

ـ « هذا هراء · أنت قلقة بشـأن شىء ما » ·

ونهضت لكى تحضر المزيد من القهوة وقالت « لقد سمعت آن تبكى فى أثنـاء الليل » .

فنظـر اليها بذهول وقال « وماذا يستوجب البكاء من آن ؟ » ·

فأجابته قائلة « انهما لا يقولان أى شىء · أنت تعلم أنهما الآن لا يتفوهان بأى كلمة · فلا يدرى الواحد ماذا يجرى فى خاطر أى شخص » ·

وألقت عليه نظرة حزينة غريبة لم يدر كنهها ·

فقال مذكرا اياها « لقد بـدت آن راغبة فى الحضور الى هنا أمس ، بل لقد كانت راغبة فى ذلك أكثر من هال ـ الذى كان مرتبطـا بموعد رقص أو بشىء من هذا القبيل » ·

فأخـذت تحرك قهوتها وهى تفـكر وقالت « انه ليس من شيمة آن أن تسلم بمثل هذه السهولة ـ الا اذا كانت تريد شيئا ما » · فقال : هـذا صحيح · فقالت :

ـ لم يحـدث قط أن سـلمت آن بسهولة عندما كانت ترغب رغبة شديدة فى الحصول على شىء ما ولذلك فان من الواضح أنه لم تكن لديها البارحة الرغبة فى شىء ما ·

فقال متذمرا « أرجو أن تكون راغبة فى الاسورة التى ابتعتها لها فى مناسبة عيد الميلاد، لقد تكلفت مافيه الكفاية » ·

فقالت : « لم أعد أدرى ماذا يريدان ·· فكل فرد قد تغير على نحو ما » ·· وتنهدت وأخذت ترتشف قهرتها مـرة أخرى ممسكة بقدحها بكلتى يديها كما لو كانتا باردتين ·

وتفحص وجهها الذى كان لايزال جميلا بالرغم من شـحوبه · لقد مضى زمن طويل منذ كان يراها فى الصباح قبل أن تزين وجهها ، فانه كان يبدأ عمله مبكرا فى حين أنها كانت تنام الى وقت متأخر ·

فعاد يسألها : هل أنت بخير ؟

فقالت : « انى متعبة ، ولعل هـذا يرجع الى المرحلة التى أمـر بهـا من عمرى » ·

فقال : « أى تقهقر للمرأة » · ونهض وقبلها فى وجنتها قائلا : « هـل تذكرين كيف تعودت على تسلق جبل

« المون بلان » معى عندما كنا نقيس الأشعة الكونية ؟ ان هذا لم يكن منذ زمن طويل » ٠

وابتسمت ابتسامة باهتة ولم تجب٠ فعبث بشعرها محاولا مداعبتها ، فأمسكت بيده وضربت عليها برفق قائلة : « اننى أراهن على أن هداياك لعيد الميلاد غير مغلفة » ٠

فقال : « انك مخطئة ٠ لقد حرصت على أن يقوم « تيفانى » بتغليفها » ٠

فبدت عليها صدمة الدهشة وقالت : « هل أحضرت كل شىء من هناك ؟ » ٠

فأجابها : « كل شىء ، وعندما قلت : اننى أريد تغليفها بغلاف الهدايا ، قال العامل بحدة ان تغليف التيفانى العادى انما هو تغليف الهدايا » ٠

فكان فى ذلك ماأضحكها مما جعله يشعر بالانتصار ٠

وقال : « أما الآن ، فسأصعد لغرفة السطح لاحضار لفافاتى الثمينة كى نضعها حول شجرة الميلاد » ٠

وسألته : « ولماذا بحق السماء وضعتها هناك ؟ » فان الأولاد لن ينقبوا عنها ـ لقد نسيت أنهم كبروا » ٠

فقال :« انها العادة ، مساء أمس كنت فى غرفة السطح أضع لفافاتى الغالية فى نفس الركن الذى كنا نضع فيه منزل عرائس آن ودراجة هال ٠٠٠ كم عاما مضت منذ أن أمضينا عيد الميلاد هنا ؟ » ٠

فقالت : « لم نفعل ذلك منذ أن وقعت فى حب نواة الذرة » ٠ وبدت فى عينيها الزرقاوين ومضة من الخبث القديم وقالت : « كم أود أن أعلم مافى الذرة من سحر وجاذبية » ٠

فأجاب فى اصرار : « نعم ، يا له من سحر ٠

وتركها حينئذ وصعد الدرج الى غرفة السطح ووجد هداياه فى الحقيبة الورقية البنية اللون حيث أخفاها بالأمس ٠ وعند هبوطه الى منتصف الدرج الى الطابق الثانى سمع صوت آن فى الردهة العليا وهى تتحدث الى شخص ما ـ الى رجل ما بطبيعة الحال ـ وهى تقول : وما الفائدة من حضورى الى المدينة الليلة ؟ ٠٠٠ نعم ، انى أستطيع القدوم مع هال ـ فان لديه موعدا ـ ولكن ماهى الفائدة ؟ لن يكون قبل منتصف الليل عندما تستطيع أن تترك عائلتك وسيكون لدينا خمس عشرة دقيقة ، حسنا ، نصف ساعة اذن ـ وتكون ـ قلقا طول الوقت ، فأى خير فى هذا ؟ ٠

لقد سمع الألم وحدة العاطفة واعتصر الألم قلبه فجأة ، اذ رآها هناك عند التليفون ٠ كانت مازالت فى قميص النوم الصوفى الوردى اللون ، وشعرها الأصفر معقوصا فوق رأسها ، انها طفلة بالرغم من أعوامها العشرين ، وما من رجل يحق له أن يؤذى هذ الطفلة التى أنجبها ٠٠٠ كيف يستطيع حملها على الافضاء اليه باسمه حتى يستطيع الدفاع عنها من هذا المخلوق ؟ ٠

وصاح : « يا آن ٠٠٠ » ٠

وفى التو أغلقت التليفون ، ثم استدارت ونظرت اليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين المذعورتين ٠

وسألها : « انه لوقت مبكر للاستيقاظ فى صبيحة عيد الميلاد أليس كذلك ؟ » ٠

فقالت : « لم أستطع النوم ، ان البرد لشديد هنا بجوار البحيرة » ٠

فقال : « على أى حال حسن أنك استيقظت ، اذ يجب أن نقطع الشجرة أنا وهال ثم نشذبها ونتناول طعام العشاء جميعا كما كنا اعتدنا أن نفعل .. وسوف أحضر لك بعض الأغصان لتزيين المنزل بها ـ ربما بعض الصنوبر ـ فماذا تقولين ؟ » .

ووضع الحقيبة الورقية البنية فوق الدرج وتقدم نحوها .

وعبرت آن الردهة لمقابلته على أطراف أصابعها وقبلته قائلة « لقد جاشت بصدرك العواطف يا سانت كلوز أليس الأمر كذلك ؟ » ثم أضافت فجأة : « انك لطيف أيها العجوز » . فأجابها شاكرا : شكرا ، حتى هذا لم أسمعه منذ زمن طويل » .

وقالت موافقة : « لم أقل لك أى شيء منذ زمن طويل فعلا » فقد كنت بعيدا فى كل مكان ما خلال هذه السنوات العشر ، أليس كذلك ؟ » وكانت تدور حول حواجبه بأطراف أناملها الرقيقة .

وقال ممسكا بأناملها : « انك أنت التى كبرت بدون اذنى .

وكان يفكر ، لو لم يكن قد أصر على أن يكونوا هنا اليوم لما كان هناك هذا الحوار . وكانت ستكون نائمة فى سريرها ، مرهقة من الرقص ... وهلم جرا ـ ومالت برأسها على صدره بدون توقع .

وقالت هامسة : « اننى أتمنى لو عدت صغيرة مرة أخرى ، أتمنى لو أنى لم أكبر قط ..

وضغط شعرها الناعم قائلا : « لماذا يا آن ؟ ـ لماذا يا آن ؟ »

فقالت : « سخافة ، أليس كذلك ؟

ورفعت رأسها ونفضت الدموع من عينيها اللتين تطلعتا اليه فى ابتسام ثم هرولت الى حجرتها وأغلقت الباب دونه .

فصاح فى أثرها : « عيد ميلاد سعيد » . ولكنها لم تجب .

وحينئذ فتح باب غرفة هال . وهناك كان يرقد ممددا فوق السرير ولده العزيز الوحيد فى الثمانية عشرة ، يبلغ من الطول ستة أقدام ، وسيم ، ذكى ـ شخص غريب عنه كلية ، وسار على أطراف أقدامه عبر الغرفة وتطلع الى ابنه النائم . رجل هذا الصبى ـ صبى هذا الرجل . طويل ، رفيع ، يافع ، ذو عظام ضخمة وجلد نضر وشعر داكن بالغ الطول ـ لقد كان هال هو الذى يتلهف للحضور الى البحيرة فى الصيف ، للسباحة والصيد والنزهة فى القوارب ، لقد أوشك على الغرق مرتين فى المياه العميقة الساكنة . ففى المرة الاولى كان قد سبح الى أبعد مما احتملت قواه . وفى المرة الثانية عندما اصطدمت رأسه أثناء غوصه . ولقد أنقذ مرتين ، وفى كلتا المرتين كانت النجاة على يدى أبيه . فقد رزق بحياة هذا الولد ثلاث مرات اذن ، وكانت المرة الاولى عندما خرج من بطن أمه .

والآن أصبح الغريب الذى يقود سيارته بجنون خلال الليل ، والذى يرقص رقصات مجنونة مع أشخاص غير معروفين ، ويعود الى المنزل ثملا فى بعض الأحيان ، محطما قلوب والديه ، فكيف يمكن انقاذ ابنه؟ لأن بداخل هذه الجمجمة النبيلة عقلا يستحق الانقاذ ، وقد كتب له أستاذه القديم بجامعة هارفارد عن هال قائلا: « اذا استطعت انتشاله من هذه النوبة من غرور الشباب وهذا الجنون بالسبق ، فانه سيكون لديك رجلا » .

وفجأة فتح هال عينيه ونظر اليه وقال : « هل حان وقت النهوض ؟ » .

فأجابه : « علينا أن نقطع الشجرة بعد الافطار » .

فاستدار هال وغاص فى وسادته قائلا: « حسن ، حسن » .

ثم وقف برهة أطول مخفيا ما حل به من نفاد الصبر . عيد الميلاد ، والصبى يريد أن ينام . وتذكر أياما أخرى عندما جاء هال الى غرفته فى الفجر متشوقا لكى يبدأ اليوم . وكان يقطع نومه القصير وينهض من فراشه لكى يسعد ابنه .

واستدار فجأة وترك الحجرة ، وأغلق الباب ، وكاد يصفقه . صبرا . لقد تعب من محاولة التمسك بالصبر . اذ كان هال لا يتسم بشىء من ضبط النفس . وتساءل ... لماذا يرزق الرجال بأولاد ؟ .

وذهب الى غرفته الخاصة ووقف بجوار النافذة ، كان الثلج يتساقط مرة أخرى بكثرة من السماء الملبدة بالسحب الرمادية ، ولقد اختفى النجم .

كان الجو صافيا من جديد عندما ذهب هو وهال يخوضان الجليد بعد الافطار ، وارتفعت روحه المعنوية بالرغم منه ، والآن وقد امتلأ جوفه بالطعام بالدافىء المغذى وقد شجعه منظر جمال احمرار خدود هيلين ، بالرغم من أنها قد لاتكون لسبب أكثر من حرارة الموقد الخشبى الذى أصر على ايقاده تكريما لهذا اليوم ، وتحت تأثير نوبات الحنان التى تبديها آن لان قلبه من جديد نحو هذا الشاب الطويل الصامت الذى هو ابنه .

وقال : « عندما كنت طفلا ، كنا ننعم بعيد ميلاد أبيض ، واعتدنا أن يكون ذلك أمرا مسلما به . وأعتقد أنك وآن كنتما على الدوام تريان فى الثلج أمرا مسلما فى السنوات التى كنا نحضر فيها هنا لقضاء عطلة أعياد الميلاد . اذ ليس الثلج بمثل هذه الأهمية فى المدينة . وسمع خلفه وطء أقدام هال ولكن لم يتلق أية اجابة على حديثه القصير ، فتطلع وراءه فوق كتفه ورأى وجه هال الخالى من أى تعبير . لم يكن الصبى يستمع له . ثم التقط نظرة أبيه الحادة .

وسأل : « هل قلت شيئا ياأبى ؟ »

فقال مقتضبا : «ليس بالشىء المهم» .

واستمروا فى مشيتهم . وسأل نفسه: لماذا أتحدث لهذا الابن الذى لايسمعنى؟

وكان عنده الكثير مما يود قوله لابنه ... والكثير فعلا .

كان يتلهف لمشاركة هال شيئا من حياته الخاصة ، نشوة أن يكون المرء عالما من علماء الطبيعة فى عصر الذرة ، حينما أصبح عالم الطبيعة فجأة أهم رجل فى العالم .

وفى الماضى عندما كان العالم يعمل بمفرده فى عزلة فى المعمل ، وكثيرا ما يقوم بتجارب على غير هدى وعادة بدون جدوى كان العالم لا يكاد يكون من بنى الانسان بل ساحرا ، أو رجلا شاذا ، أما الآن بعد معرفة ما فى قلب الكون من طاقة فى ذلك الحيز البالغ الضآلة أصبح العالم موضع الاحترام وموضع الرهبة ... فهل كان هال يحلم بمثل هذه الأشياء ؟ لم يكن هناك من سبيل لمعرفة ذلك ، فليس ثمة تجاوب بين الأب والابن .

وتوقف لكى يتأمل الغابات الخضراء التى كانا يقفان فيها ، كانت الاشجار قد نمت الى حد بالغ فى الطول ، فيجب

عليهما البحث فيما وراءها عن بعض الأشجار الصغيرة .

وتساءل هال: الى أين تريد الذهاب؟

فقال يجب أن نجد شجرة فى حجم مناسب ، ولذا سوف نذهب الى حافة الغابة .

فقال هال : اننا نستطيع أن نقطع الجزء العلوى من أية شجرة .

فهز رأسه قائلا: اننى لأشد احتراما لأصول قطع الأشجار من أن افعل ذلك، ان شبح أبى سوف يظهر صائحا بى . أنقضى على شجرة بأكملها من أجل قمتها ؟

فالح عليه هال قائلا : لقد بدأ الوقت يتأخر ...

ـ وفيم تعجلك ؟

فوقف هال وسط الجليد قائلا : يا أبى اننى أريد العودة الى المدينة فى الساعة الثامنة مساء .

فاستدار ووقف مواجها ابنه وقال : لقد طلبت من عائلتى شيئا واحدا بمناسبة هذا العيد، وهو الهدية الوحيدة التى أريدها حقيقة ـ وهو أن نقضى اليوم معا هنا ، واليوم يشمل المساء وسوف تحل الساعة السادسة قبل أن نكون قد انتهينا من تناول العشاء . ثم سيكون أمامنا الاجتماع حول الشجرة .

ورأى نظرة غريبة فى عينى هال ، رأى تمردا مكبوتا ، اذ كان الصبى يخالجه مثل هذا الاحساس ، فلماذا لا يعلن غضبه ؟ لقد حدث مرة عندما كان هو نفسه فى الثامنة عشرة من عمره أنه تشاجر مع أبيه بالكلام فى مبدأ الأمر ، ثم بالايدى، لقد كان ذلك بسبب أحد الايام وكان من أيام الصيف عندما أراد الذهاب الى المعرض الاقليمى ، ومنعه أبوه من ذلك . اذ قال له أبوه بخشونة أن العلف صالح للقطع ، فلن يذهب أحد الى أى مكان . فقال اننى ذاهب . وصاح أبوه فلتحاول ذلك . وحملق كل منهما فى وجه الآخر وعلى حين فجأة زمجر أبوه قائلا : اذا كنت تشعر فى نفسك بما يدل عليه مظهرك فلنتصارع ولنرى من هو أقوى باسا . ولقد تماسكا وتصارعا كالثيران، الشاب والكهل ، وطرح أباه أرضا . ووقف يرقب أباه أثناء نهوضه على قدميه ، والكبرياء والخجل يتقاسمان قلبه . وقال أبوه باكتئاب : حسن . سوف أقوم بالعمل بمفردى فقال : « اننى سوف لا أذهب » . وعمل الاثنان معا جنبا الى جنب خلال الساعات الطويلة الى الغروب ...

أجل لقد كان هذا الصبى ـ هو نفسه ـ شخصا يستطيع أن يفهمه . فلماذا لم يقدم هال على تحديه ؟

أما هال فقال: « انك الرئيس المطاع، وأعتقد أنك ستكون الرئيس على الدوام » .

فحدق فى وجه ابنه الساخط وقال : « بحق الشيطان ماذا تعنى بذلك ؟ »

فأجابه : ليس سوى ما قلته الآن ـ انك الرئيس ، لقد كنت الرئيس الكبير منذ الحرب ، ألم تكن كذلك ؟ قاتل ذرى ..

فأخذ يحملق فى هذا الشاب العملاق الذى كان ينظر اليه شزرا ، ثم سرى الغضب فى بدنه سريان النار ، ولطم ابنه على فكه لطمة فنية متقنة أثارت دهشته وفى نفس اللحظة تبين احساسه بالكبرياء ... كبرياء وضيع أصابه بالذهول وهبطت يده . وصاح متلعثما « اننى لم أقصد ذلك ياهال ولست أعلم ما الذى دهانى ، ولكنك ناديتنى باسم

شرير • ومع هـذا ما كان ينبغى لى أن أفعل ذلك » •

وجذب هال منديله من جيبه وجفف وجهه •

وسأله : هل تنزف ؟ فأجابه : نعم قليلا ••

فقال الأب : حقا • انه كدم بالغ •• وما الذى حملك على أن تدعونى بهذا الاسم يا بنى ؟

ـ انه حقيقة ما أنت عليه ، ألست كذلك ؟ نوع ممتاز من المتفننين فى القتل ••• فصاح : « كلا » •

وفحص هال المنديل الملوث بالدم ، وأطبقه ثم أعاده الى جيبه ، وقال : « حسن ••• لنقطع شجرة عيد الميلاد » •

فقال : « هال ، اننى لا أستطيع أن أترك ذلك عند هذا الحد » •

فصاح : « لقد قلت حسنا • حسنا• فأجابه : حسنا اذن ••

وعاوده الغضب ، فتجهم وجهه ومضى يسير بخطوات واسعة متقدما ابنه حتى قطع خمسين خطوة• ثم وقف أمام شجرة صغيرة رشيقة ، وقال : « ها هى شجرتنا » •

فقال هال : « سأقوم بقطعها » • ورفع الفأس وهوى بها ثلاث مرات على جذع الشجرة ، ولكنه فى كل مرة كان يخطىء المكان الذى هوت عليه فى المرة الاولى ثم ألقى بالفأس وقال : « اننى أشعر بدوار يا أبى » •

فقال له : « دعنى أرى وجهك » ووضع يده تحت ذقن ابنه وأخذ يفحص الكدم الذى بدأ يزداد لونه سوادا وقال فجأة : أود أن أسألك الصفح عن تصرف كهذا فى يوم عيد الميلاد •

فأجابه هال : « ليس ثمة ما يدعو الى ذلك فقد وجهت اليك اهانة » •

فأجابه فى اصرار: وهو ما لا استحقه ولكن فلنسترح ••• وسأقطع الشجرة بنفسى • وبأربع ضربات متقنة سقطت الشجرة وصدر عنها صوت يشير الى الأنين الطويل •

ورفع مؤخرة الجذع ، فى حين أن هال أخذ بطرف قمتها • وحملاها فى صمت مترسمين خطاهما عائدين عبر المرج الى الشرفة الأمامية للمنزل •

وقال هال : « سوف أزيل الثلج عنها » •

فقال أبوه : « لندخل المنزل لننال قسطا من الدفء أولا » •

وقادهما الطريق الى المطبخ ، وكانت الحجرة دافئة يملأها عبير نبات «المريمين» ورائحة شواء الديك • وهتفت هيلين فى ابتهاج : أهلا بكما • وكانت منصرفة الى وضع الزبد على الديك فى الفرن. موردة الوجه ، وقد تهدلت خصلات شعرها الفضية • واستمرت فى الكلام قائلة : « لايوجد موقد مثل هذا ، واننى لأعجب كيف صح عزمنا على هجر موقد الخشب » •

فصاح : « انتظرى حتى يكون لديك موقد ذرى • ففى دقيقتين اثنتين يكون ديكك قد نضج، وما علينا سوى الجلوس الى المائدة والضغط على أحد الأزرار • وبعد تبادل حديث قصير المدى يكون الوقت قد مضى واذا بالطير معدا للتقطيع » •

ولم ينطق أحد بكلمة ردا عليه وكان اذ ذاك يخلع حذاءه، فلم يلاحظ الصمت• وكانت آن منصرفة الى تنظيف أوانى المزرعة القديمة الفضية •

وسأل هال : « أما من مكالمات تليفونية ؟ » فأجابته آن : كلا . ثم نظرت اليه وصرخت قائلة: « ماذا حدث لوجهك ؟ ؟

ورددت هيلين قائلة : « وجهك ..» وأغلقت باب الفرن قائلة : « ماذا جرى؟ انه لمخيف » .

وقال أرنولد بخشونة : « لقد ضربته » .

ووقف وملأ قدحا وشربه .

وقال هال : « لقد أهنت أبى » .

وجلست آن على مقعد المطبخ قائلة : « يا الهى ، يا الهى . ماذا حدث لنا » .

فقالت آن : « هدية عيد الميلاد » وضحكت فى عصبية وأخفت وجهها بين يديها .

فصاح بها : « اسكتى يا آن ، أوقفى هذا الضحك . انى أقول لك أوقفيه ».

وأمسك بكتفها وهزها . فرفعت وجهها ناظرة اليه يتنازعها الضحك والبكاء ولم يعرف أيهما كان يغلب عليها. فقالت له :

ـ « هل ستضربنى أنا أيضا يا أبى؟ هل أصبحت الآن من هذا الصنف من الرجال ؟ »

فتراجع الى الخلف متسائلا : ماذا تعنين ؟ وتطلع اليهم من وجه الى آخر قائلا : « ماذا يعنى أى واحد منكم ؟ »

وتولت آن الاجابة ، فقد كانت هى الضاربة ، الصغيرة الضاربة التى هاجمته وعضته يوما عندما كانت فى السابعة من عمرها وبكل عدل كان مرغما على تأديبها بالضرب لتجاوزها الحد فى عبثها لأنها رسمت بعض صور الأغنام والزهور على أوراق معادلاته الرياضية . ولبرهة وجيزة ظلت آثار أسنانها الصغيرة ماثلة على ابهامه .

وقالت آن فى تؤدة : « اننا نعرفك، فلقد تغيرت ، ولقد أصبحت غريبا عنا » .

وأخذ يتأمل فى هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم . ولبرهة وجيزة شعر بأنه عديم الحيلة والنصير وأنه ليس أمامه سوى البحث عن مهرب ، ففكر فى أن يطير الى أى مكان لكى يهرب من أمامهم . ولماذا ترك ما كان ينعم به من راحة فى معمله؟ الا أنه لا يستطيع الهرب منهم ، أينما كان. فقد كان يحبهم ، يحب كل واحد منهم على وجه يختلف عن الآخر ويحبهم جميعا فوق الطاقة... والآن يتعين عليه أن يواجههم كما سبق أن واجه ما فى حياة عالم الطبيعة من قرارات مرعبة .

هل ينبغى أن يتابع هذه المعلومات أيضا الى أقصى غاياتها . كما سبق له أن تابع البحث الخاص بالطاقة الكامنة فى نواة الذرة ؟ لقد مرت به أوقات كان يتوق فيها الى الهرب مما تنتهى اليه هذه المعلومات الا أنه كان قاسيا مع نفسه ولم يكن ثمة من مهرب لرجل العلم .

وحتى أثناء معرفته أن طاقة خفية تستطيع أن تفنى العالم ، فانه تعقب المعرفة كواجب يتعين عليه أداؤه ففى وسعها اذا استعملت استعمالا صحيحا أن تؤدى الى الحياة بدلا من الموت . وعلى نحو غريب كان الحب شبيها بذلك ، قوة للشر أو للخير ، فكل شىء يتوقف على المخلوق البشرى ... لذلك كيف يكون هؤلاء الثلاثة غرباء عنه الآن فى حين أنه كان يحبهم الى هذا الحد ؟..

فى صباح هذا اليوم، يوم عيد الميلاد، كان لايشعر الا بالحب دون سواه . فماذا يستطيع أن يقوله ليحملهم على ادراك ذلك ؟

وجلس الى مائدة المطبخ وأخذ ينظر من وجه الى آخر · لقد كانوا يراقبونه فجعل نفسه يبدو لطيفا أمامهم · وفى النهاية ، وقع اختياره على وجه آن من بين الثلاثة وقال : « يا آن أنت صادقة مثل نجم عيد الميلاد ، وانى لأقدر ذلك، وأنت تقولين اننى غريب عنكم ، عن عائلتى ··· فى حين أنى طول الوقت كنت أفكر فى أنكم أنتم الغرباء ، أنت وهال ، وحتى أنت يا هيلين · لقد شعرت بالضياع هنا ، ولكنى شعرت بالضياع لمدة طويلة ــ فى منزلى » ·

فارتبكت آن ورأى ذلك فيجب عليه أن يكون أشد تمهلا وقالت : « لقد كنت مشغولا يا أبى » ·

ووافقها قائلا : « طبعا كنت مشغولا وابتعدت عنكم أكثر مما ينبغى وشغلت أكثر ما ينبغى بما كنت أظنه واجبى العمل المنوط بى · ولكنى لا أستطيع العيش بدونكم يا أعزائى ، مهما يكن شأنى » ·

وكان تواقا لأن يفهموه ، ولكنه اذ تفحص وجوههم ، رآهم ما زالوا على حذر ··· اذ لم يعرفوه كما كان يبدو الآن · فثمة ذكريات أخرى كانت تزحم عقولهم ، وكان فى وسعه أن يحزر ما يجول بخاطرهم وهو أنه يعمل على اظهار حبه لهم محاولا اكتسابهم مرة أخرى اليه، بالتدليل على أنه مازال الأب المرح الرقيق القلب والزوج والحبيب المشبوب العاطفة ·

ولكنه لن يلجأ الى الدفاع عن نفسه، فوجه خطابه الى آن مرة أخرى قائلا « استمرى فى الكلام بصراحة وصدق·· لماذا تشعرين بأننى غريب ؟ »

ولكن وجهها الجميل الصغير بدا محكم الاغلاق دونه وقالت : « ان الناس يسألوننى عن شعورى ازاء أب هو ·· هو الذى صنع القنبلة الذرية · ويسألوننى عما تصنعه الآن · وأجيب بأننى لا أعرف ، لأنى لا أعلم ، فانك لا تخبرنا عن شىء على الاطلاق » ·

وتدخل هال قائلا : « لا تلومى أبى بشأن القنبلة · فمهما يكن ما قام به فى هذا الشأن فانا أعتقد أنه كان يتعين عليه أن يقوم به ، وفضلا عن ذلك لقد انتهى وتم هذا منذ زمن طويل » ·

وتكاثفت فى المطبخ الكبير ، الدافىء، الروائح اللذيذة لأغصان الصنوبر ولشى الديك · أما فى الخارج فقد تغير الجو ، اذ بدت السماء تكفهر مرة أخرى وبدأ الثلج يتساقط فى الهواء الساكن ندفا كبيرة ناعمة · فكان المنظر يبدو فى المظهر التقليدى لعيد الميلاد شأنه شأن الديك الموجود فى الفرن، والشجرة الظريفة التى ما زالت تنتظر فى الشرفة ·

ولقد ذكر أنه منذ طفولته كان المظهر يبدو كما هو بعينه فى كل عيد ميلاد الا أنه كان يوجد اليوم بالمنزل شىء لم يكن له وجود قط من قبل · لقد حل نوع من الخوف وأسفر عن نفسه ، خوف بشرى من مستقبل ــ مخيف ولكنه محتمل الوقوع ــ وما ذلك الا بسبب ما قام به هو وزملاؤه العلماء ·

واذا كان الخوف قد حل هنا ، أفلم يكن قد حل فى كل منزل آخر ، وفى كل قلب آخر ، كسر مكتوم وشبح غامض وهو الذى وصل الى اكتشاف معجزة قد عجز عن اشراك من يحبهم فى أمرها ، فهم لم يعرفوا سوى الخوف ·

ورفع رأسه قائلا : « دعونى أحاول، دعونى أحاول أن أوضح حقيقة أمرى.

فانى أعتقد بأنى أدرك السبب فى خوفكم منى » ٠

ولم تستطع آن أن تتحمل ذلك فقالت : « يا أبى ، اننا لسنا خائفين منك فعلا ، ولكن لم يعد أحد يشعر بالأمان الآن ٠ ولهذا فاننا نهيم على وجوهنا ـ اننا لانريد التفكير فى الأمر، ما من أحد منا يفعل ذلك ٠٠٠ ولذلك نمضى فى انطلاقنا فحسب دون تفكير»٠

وأخذت وزجته الشفقة به فقالت : « اننى أعلم يا أرنولد أنك لا تملك من الأمر شيئا » ٠

وقال فى النهاية : « اننى أنا أيضا أشعر بالخوف، فالخوف الذى تستشعرونه هو خوف أشاركم اياه » ٠ وكانوا يستمعون اليه باهتمام لم يكن باديا فى استماعهم من قبل ٠ فقد كان يقول شيئا جديدا ٠

وسألت آن : « هل أنت خائف من نفسك ؟ »

فقال فى عزم وقوة : « كلا ، فاننى أعرف نفسى ٠ نعم انى تغيرت ، ولكن ليس كما تظنون ٠ فما من أحد يستطع اكتشاف الأشياء التى اكتشفتها دون أن يتغير ، ولكنى رجل متواضع الى حد لم أبلغه من قبل ٠ فأنا أؤمن بالله ٠٠٠

ونطق بالكلمات فى بساطة وهو يدرك دلالتها٠ فهو لم يسبق له أن نطق باسم الله من قبل على الاطلاق، بل كان يزهو بالالحاد ومشايعة الدهريين ٠

ومضى فى كلامه محاولا الايضاح دون اثارة العواطف : « قد لا يكون الله الذى كان يعبده آبائى ، ولكن أجل ، أنا أؤمن بالخالق الأبدى خالق السماء والارض ٠ وكيف أستطع ألا أؤمن ؟ لقد واجهت الخليقة وهى تأخذ مجراها فى قلب الذرة ـ غير مرئية ، ولكنها مكتملة الأغراض ، ولها من القوة والطاقة ما لا سبيل الى قياسه ٠٠٠ وأنا أؤمن بما لا أستطيع أن أراه » ٠

وكانوا لا يبدون حراكا حتى لكأنهم كانوا لا يتنفسون ٠ وخطر له اذ ذاك أنه لم يتحدث اليهم مطلقا من قبل عن أفكاره فى المسائل الجدية ٠ فقد مرت أيام السنين التى قضوها معا وهى لاتعدو الشئون السطحية للحياة ، ويحتمل أنه كان أشد خجلا مما ينبغى لكى يكشف الحقائق المستورة فى حين أنهم كانوا ينشدون الحقيقة ٠ كانوا ينصتون اليه فى ارتياح واسترخاء ، آن جالسة على الأرض ويداها متشابكتان فوق ركبتيها، فى حين أن هال كان واقفا مستندا الى الباب ، ويداه فى جيبه ، وكانت هيلين جالسة الى جانب المائدة مطأطئة الرأس٠ كان يعرف أنها تستمع اليه ولكن فى ارتياب ٠ هل يحتمل ذلك ؟ يحتمل أنهم جميعا فى ريبة منه ٠

ثم تردد وحاول أن يضحك قائلا : « تبدو أقوالا خطيرة أليس كذلك ؟ قد أكون مخادعا لنفسى ٠٠٠ » وترك الكلمات تتعثر ٠

وقالت هيلين فجأة : « يجب أن أزود الديك بالدهن مرة أخرى » ٠

وخامره الشك ، من النظرة التى علت وجهها فى أن الموقف كان أكثر مما تقوى على احتماله ٠ وانتظروا ريثما فتحت الباب الحديدى للفرن ، وراقبوها عندما غمست ملعقة كبيرة فى الدهن السائل وصبتها على الطير الكبير ٠ فدار فى خاطره أنه على هذا المنوال أصبحت اليوم الأمور الكبيرة والصغيرة تختلط بحياتهم بحجم عيد الميلاد والمخاوف الذرية ٠

وملأت كوبا من الماء البارد وشربته

ثم جلست من جديد الى المائدة · وقالت آن : « استمر يا أبى » ·

فقال بحدة « اننى لا أعرف كيف استمر الآن ، حقا اننى كنت بعيدا لمدة سنين وحتى على الرغم من أننى أنام وآكل فى المنزل وفى معظم الأوقات ـ الا أننى كائنى فى مكان آخر· وقد لاأستطيع العودة · وقد لا نلتقى أبدا مرة أخرى لقاء حقيقيا · أنتم الثلاثة وأنا ·· انه لمن الموحش أن يكون المرء عالما ·· حياة موحشة · فاننا لا نقوم بأى اتصال الا فيما بين الواحد والآخر فى عالمنا الخاص· ولهذا فاننا نواصل الذهاب الى المؤتمرات لمحاولة العثور على قوم يتحدثون بلغتنا ـ على من نستطيع التفاهم معهم بلغة المعادلات ··· عليكم أنتم الثلاثة أن تقابلونى فى منتصف الطريق » ·

فقالت آن فى صوت منخفض : « ولنفرض أننا لا نستطيع ذلك » ·

فقال فى كآبة : « حينئذ أظن أنه سوف يتحتم على أن أمضى فى طريقى وحيدا » · وعندها قامت هيلين واتجهت نحو النافذة ووقفت هناك تراقب الثلج المتساقط ثم قالت : « اننا جميعا نعيش فى العصر الذرى معا ، وكل ما فى الأمر أنك أدركته قبلنا » ·

فقال شاكرا : « ان هذا الادراك مرهف من جانبك يا عزيزتى » ·

ودق جرس التليفون ، فخرج هال الى الردهة ليجيب عليه، ولبثوا ينتظرنه وسمعوه يقول : « انى لا أعرف ما اذا كنت قادما ، وسوف لا أعرف لفترة أطول من ذلك ·· سوف يتأخر حضورى اذا كنت سأحضر ··· »

وعاد الى الحجرة ، وألقى بنفسه فوق السجادة ذات الصوت الخشن الطويل الموضوعة أمام موقد المطبخ ، وعقد يديه تحت رأسه محملقا فى السقف · وقال:: « استمر يا أبى » ·

فقال لابنه : « اننى لا أستطيع الاستمرار ، انكم يجب أن تقبلونى عن ايمان وثقة بى · فان لكم أن تثقوا بى مهما أفعل كما أن لكم ألا تثقوا وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننى رأيت رؤيا صادقة وشأنى فى ذلك شأن الرجال الأقدمين الذين تتبعوا النجم ـ أولئك الرجال العقلاء · ولقد آمنوا بأن طفلا سوف يأتى بعهد جديد أفضل سبيلا ··· وهذا ما أؤمن به » ·

فقالت هيلين: « ولكن كثيرا من الناس كانوا فى خوف من ذلك العهد الجديد أيضا » ·

فقال شاكرا مرة أخرى : « أنت على صواب مرة أخرى » ·

وكانت اذ ذاك تطل خارج النافذة وعندها ذهبت الى صندوق الخبز ووجدت كسرة جافة فأخذت تفتتها ثم فتحت النافذة ووضعت الفتات على اطارها الخارجى وقالت : « اننى أرى طائرا مغردا من طيور الغابة وقد تأخر عن أوانه » واذا بأن تذكر القصة القديمة فتقول : « لقد حاول هيرود أن يقتل الطفل فهل تذكر ذلك ؟ » ·

فاستدار اليها وقال : « لقد أراد أن يوقف سير العهد الجديد · ولكن ما من أحد يستطيع ذلك ـ ما من أحد وما من شىء ـ لم يستطع هيرود أن يقتل الطفل ·· ونحن لانستطيع تدمير النواة الثلاثة للذرة · انها خالدة ، انها موجودة · وعلينا أن نتعلم كيف نستخدمها ـ للخير وللخير فحسب » ·

ونهض واقفا فى قلق وأخذ يسير فى الحجرة روحة وجيئة بين النافذة الجنوبية والنافذة الشمالية فى حين أن الثلج

الأبيض كانت تدفعه الريح الى الألواح الزجاجية ، وكان المطبخ الكبير القديم يمتد بعرض المنزل المتين البنيان . وشرع يفكر بصوت عال قائلا ... كم أود لو أن الامر بدا بطريقة مختلفة ـ أثناء السلام بدلا من أثناء الحرب . أود لو أنى استطعت اضاءة المدن وتدفئة المنازل وأن أصل الى اتقان اعداد وقود لآلات مدهشة حتى ولو لم تكن قد ابتكرت الى الآن ... ولكن يبدو ، انه لم يكن فى الاستطاعة أن يبدأ الأمر على هذا الوجه فقد كان علينا قبل كل شىء أن نمنع رجلا أحط من النوع الانسانى من أن يقوم بتدمير العالم

وتوقف ثم نظر اليهم وقال : « هل تفهموننى ؟ كان من شأن هتلر أن يقضى علينا . فقد كان يسعى وراء القنبلة أيضا . ولم نسبقه الا بعدة شهور لا غير » .

وعاد يذرع أرض الحجرة روحة وجيئة قائلا : « ان الشىء الوحيد الذى يخيفنى فى الحياة هو الصنف المنحط عن النوع الانسانى . اننى أثق فى الطاقة الكامنة فى الذرة ، وبوسعكم أن تعرفوها وتتعلموا استخدامها ، وهذا أمر يمكن التنبؤ بوقوعه . وأنا أثق فى جيل طيب ثقتى بالله . وأما المنحط عن النوع الانسانى فلا . انه العدو الوحيد أمامنا . وهو قد يكون قابعا بجوارنا فضلا عن وجوده عبر البحار بل انه قد يكون حيا فى شخص واحد منا ـ حتى فى شخصى أنا . »

وتوقف أمام آن ولكزها باصبعه الكبير قائلا : « وهذا هو السبب فى أنك تخافين منى » .

وسقطت يده وقال : « أما والله يا بنية ـ أنه ليجب أن تخافى منى . فقد كنت خائفا من نفسى هذا الصباح » . ثم التفت نحو هال وقال: « لماذا ضربتك يا بنى ؟ »

فقال هال بصوت مكتوم : « فلنتناس ذلك لأنى أيضا فقدت وعيى فى ثورتى عليك » .

فقال أبوه : « انى لا أستطيع أن أنسى ، فأنا كذلك أنطوى على شىء أحط من الصفة الانسانية » .

لقد كان يحدث نفسه بصوت عال، معربا عن روحه بكلماته فى صباح هذا العيد للميلاد ولكنهم كانوا منصتين فقد كانوا يعرفون ما يتحدث عنه . حتى ولو كان فوق ما يحتملونه ومدت هيلين يدها اليه فأمسك بها ، ووضعت آن رأسها على ركبتها وهى قاعدة القرفصاء ورأى جسدها يرتجف . فهل كانت تبكى ؟ لم يكن يدرى .

وقفز هال من مكانه على الأرض وربت على ظهره قائلا : « كفى كلاما . أظن بأننا يفهم كل منا الآخر قليلا ، على أى حال ... وخير لنا يا أبى أن نقوم بنصيب الشجرة . سأجرها الى غرفة الجلوس من الباب الخارجى » .

وقالت هيلين : « وأنا سأبحث عن زينات عيد الميلاد » .

وفى أثناء ذهابها توقفت وقبلته فى خده . ولكن آن ظلت جالسة القرفصاء على الارض محنية الرأس . فنظر اليها ثم ذهب الى النافذة وتطلع الى الخارج . وكان الثلج قد وقف نزوله فرأى خطوطا زرقاء تبدو من جديد خلال سماء الشتاء الداكنة ؛ فقال فى نفسه أنه ليوم متقلب ، ولما يمض منه سوى نصفه كان قد بدأ يظهر عليه تأثير النهوض مبكرا، حتى ولو كان ذلك لرؤية نجم . ثم كل هذه العوامل المضطربة فى محيط أسرته

ـ من يدرى الى أى عمق تغلغلت ؟ لقد أضاع من الزمن أكثر مما يستطيع استرداده فى يوم احد ٠

ثم رفعت آن رأسها وبدأت تتكلم : « لقد أردت منذ عدة أسابيع أن أقول لك ٠٠٠ اننى فى أقصى حالات التعاسة » ٠

فشعر بقلبه يقفز فى صدره ـ اذن فهو لم يفشل كل الفشل ٠ ـ وقال : « أخبرينى عن سبب تعاستك يا آن » ٠

فقالت: « لقد وقعت فى براثن الحب» ٠ فجذب الوسادة وجلس عليها ليكون فى متناول يدها اذا مدتها اليه ٠

وقال بصوت رقيق : « ولكن هذا رائع » ٠

فقالت : « ليس الأمر كذلك ، فلقد أحببت شخصا لا يحبنى » ٠

فقال حازما : « لا يمكن ذلك ، فاننى أعتقد أنه لا يوجد على وجه الأرض رجل لا يستطيع أن يحبك ٠ حتى لو كان أعمى لا يستطيع أن يرى طلعتك » ٠

فضحكت فى فتور ثم اعتمدت على يديها ونهضت متثاقلة حتى وقفت على قدميها وأقبلت نحوه فوضعت خدها على قمة رأسه بحيث لا يستطيع أن يرى وجهها ٠

وقالت: «انه لايحبنى بالقدر الكافى، بالقدر الكافى لكى يضحى بأى شىء من أجلى ـ دائما بالقدر الكافى لكى يقبلنى ـ ومالى ذلك » ٠

فقال مرددا : « وما الى ذلك ، ليس هذا بالقدر الكافى ، انى أتفق معك فى ذلك » ٠

فقالت : « كلا ، لأنى أحبه حبا بالغا، ولهذا يجب أن تكون النهاية كل شىء أو لا شىء ٠٠٠ انه متزوج يا أبى ولذا فالنهاية لا شىء » ٠

فأبدى موافقته فى تجهم قائلا : « هذا أمر كئيب ، هذا بالغ الكآبة » ٠

فانهارت تحت تأثير حنانه وصاحت وأخذت تبكى دون أن يصدر منها صوت كما هو شأن القلب المحطم حين يبكى ٠ كلا لم تكن طفلة ، فان الطفل يبكى بصوت مرتفع ٠٠٠

وضمها ، منتظرا ٠ ولم يستطع أن يلقى اليها ما يسرى عنها من العبارات المألوفة ٠

ـ أنت ما زلت فى العشرين من عمرك ـ هناك رجال آخرون يتسمون بالشباب والوسامة ـ هذا سوف يزول يا طفلتى، هذا سوف يزول ـ انه لن ينطق الا بالصدق ٠

ورفعت وجهها الحائر المشدوه قائلة : « هل سوف يتاح لى يا أبى أن أتغلب على ذلك ؟ »

فقال : « أبدا ، ان المرء لا ينسى أبدا هذه الأمور الكبيرة ٠ انها تبقى فى باطنك ٠ سوف تجىء أمور أخرى ٠٠ ظروف أخرى للحب ٠ وسوف تعيشين فيها أيضا ٠ فهذا محتوم علينا اذ لا سبيل الى الهرب من الحياة ٠

فسقط رأسها على كتفه مرة أخرى ولكنها لم تكن تبكى الآن٠ وشعر بالألم يسرى فى قلبها الا أن عقلها نشط للعمل ، وارادتها أخذت تستجمع قواها ثم جلست وأصلحت من شعرها٠

وسألته قائلة : « ماذا كان عساه أن يكون مصيرى لو لم تكن قد حملتنا على المجىء الى هنا لقضاء عيد الميلاد ؟

فأجاب : « أخبرينى أنت » ٠ قالت: « لقد أعددت خطة للهرب ـ معه ـ لقضاء عطلة نهاية الاسبوع ٠ وهذا الصباح لم أستطع ذلك ٠ فلقد سمعتك حين استيقظت وخرجت وذهبت الى النافذة

ورافبتك وأنت تخوض الثلج وتقف هناك عند مخزن الحبوب فترة طويلة » ٠

فقال : « لقد كان على أن أرى النجم مرة أخرى » ٠ فتساءلت : « النجم ؟ »

فأفضى اليها حينئذ بما كان لنجم عيد الميلاد من شأن ومكانة لديه حين كان طفلا فى وقت ما هنا فى هذا المنزل القديم ، وكيف أنه بالأمس فى المدينة أحس بحنين لا يطاق الى العودة لكى يتزود مرة أخرى بتحديد اتجاهه بفضل النجم ٠

فانزلقت عن ركبته ، واذا ، لم تعد طفلة اذ قالت : « هذا ما أحتاج اليه — أن أحدد اتجاهى » ٠

فقال : « انها حاسة تقدير القيم ، التفرقة بين ما له أهمية وما ليست له أهمية ٠

وكانت قد سارت الى النافذة أثناء كلامه ثم وقفت هى الاخرى تتطلع الى الخارج وتتأمل منظر الثلج واذا بها تقول : « لا تخبر أحدا بأمرى يا أبى » ٠ فكان لقولها وقع الصدمة فى نفسه وقال : « كيف يسوغ لك التفكير فى أنى خليق بأن أفعل ذلك ؟ »

فقالت : « لقد ظننت أنك قد ترى أن تقول شيئا لأمى » ٠ فسألها : « ألم تخبريها ؟ »

فقالت : « كلا ، فان لديها ما يكفيها مما يشغل بالها » ٠

فقال : هل يتعلق ذلك بشىء لا أعلمه ؟

فقالت : « انها تعتقد أنه ليس ثمة من يعلم الأمر ٠ ولكن الطبيب أخبرنى ٠ فأحس بالبرد يسرى فى بدنه وقال: « كان من الواجب أن أعرف فى الحال يا آن » ٠

فقالت : « لم تكن تريد أخبارك أنت بالذات ، ولا أخبار أحد منا الى ما بعد انقضاء عيد الميلاد ٠ ولهذا أخبرنى الطبيب ، فقد قال انه كان لا بد من أن يعرف بالأمر أحد ما » ٠

فقال مرددا فى دهشة : « لم تكن تريد أخبارى ٠٠٠٠ ولكن كان يجب على الطبيب ألا يذعن لرغبتها » ٠

— « انها لم تسمح له حتى باجراء الاختبارات الا بعد انقضاء عيد الميلاد، ولهذا السبب أخبرنى ٠٠ فى حالة ما اذا شعرت بشىء فى هذه الاثناء » ٠

فأبدى تأله قائلا : « يا لكل هذه الأبواب المغلقة بيننا ٠٠ » وعادت اليه ومدت يدها فأمسك بها ليستمد منها بعض العزاء ٠ فقالت: « لقد فتحت اليوم بابا يا أبى ٠ وان بابا واحدا مفتوحا فيه ما يساعد ، فبوسعنا الآن أن نكون على اتصال فيما بيننا » ٠

فقال : « ولكن هل ستفعلين ذلك ؟ فقالت : « سأفعل ٠٠٠ انى أعد بذلك » ٠

وابتسمت له ابتسامة رزينة وحزينة ٠ فان شيئا من نضارة الشباب كان قد ولى فعلا عن وجهها ٠

فقال : « سوف يصلح حالك ، ليس مرة واحدة ، ولكن رويدا رويدا ، يوما بيوم » ٠

فأجابت : « أجل ٠٠٠ » ثم توقفت وأخذت تتشمم بقوة ثم صاحت : « أبى ٠٠٠ الديك ٠٠ » ٠

وعدت بسرعة نحو الفرن ، فعلت وجهه ابتسامة عريضة وسار مبتعدا الى الخارج وفى الردهة صاح مناديا : « يا هيلين ، أين أنت ؟ »

ومن بعيد ، من خلف باب موصد ، أجابت بصوت غير واضح ٠

وهتف هال من غرفة الجلوس : « انها بالطابق العلوى » ٠

وكانت الشجرة قد نصبت وثبتت في مكانها وكان يدق المسمار الأخير فيها قائلا : « لقد صعدت لتحضر زينات الشجرة ، ولم تعد . ولعلها لم تتمكن من العثور بعد على الذى يزين القمة ، فانها كانت لا تستطيع أن تتذكر أين وضعته » .

ولم ينتظر حتى ينتهى هال ، بل صعد الدرج قفزا وأسرع الى بابها ، فوجده موصدا ، وحاول فتحه مرةأخرى ثم قال : « افتحى لى يا هيلين » .

فقالت : « دقيقة واحدة يا عزيزى» . كان يتبين الضعف فى صوتها وهو يخترق خشب الباب ، ولكن فى أقل من دقيقة أدارت المفتاح وفتحت الباب . فبدت فيضعف واضح، كما بدت عيناها فى اتساع كبير فى وجهها الابيض .

وصاح : « ما الخبر يا عزيزتى ؟ » وأخذها بين ذراعيه فالتصقت به دون أن تجيب .

فسألها : « لماذا صعدت هنا وحدك وأوصدت الباب ؟ »

فقالت فى همس بعد هنيهة : « اننى لا أريد الافضاء اليك ، فلست أريد أن أفسد احتفالنا بعيد الميلاد » .

فقال : « انه يوم الافضاء ، انه يوم الثقة » .

فقالت فى تردد : « لست بخير فان بى علة ما » . فالقى بنظرة على الوجه الحبيب الملتصق بصدره وكانت العينان مغلقتين . فقال : « لماذا لم تخبرينى ؟ »

فأجابت : « لم أستطع ذلك فقد كنت بعيدا بعدا ساحقا » .

فقال : « هل ذهبت الى الطبيب من تلقاء نفسك ؟ » فأجابت وهى تتنهد : « نعم » .

فسألها : « وماذا قال ؟ »

ـ لم تستوف الاختبارات .

ـ هل ما زلت بعيدا الآن ؟ فقالت : « كلا » .فقال :

ـ أبدا بعد الآن ؟ فقالت : « أبدا » فقال :

ـ سوف أذهب معك الى الطبيب غدا وسأبقى الى جانبك .

فرفعت اليه وجها قد أشرق بفتنة الضياء وهتفت : « أحقا يا أرنولد ، ستفعل ذلك ؟ »

فقال : « ومن المحتمل ألا تكون ثمة أية علة أو ألا يكون ثمة شىء لا يتيسر علاجه » .

ـ الآن فقط أستطيع الاعتقاد بأن هذا محتمل .

وتطلعت اليه وقد بدت فى عينيها دلائل تجدد الثقة فحنى رأسه مأخوذا بعاطفة أبعد غورا مما عهده منذ سنين. لقد عادا الى الاتصال الوثيق مرة أخرى .

وفى الطابق الاسفل كان هال يتحدث تليفونيا قائلا : « اسمعى يا صغيرتى لن أستطيع المجىء هناك الليلة ... كلا حتى ولا فى وقت متأخر ... سوف لا أحضر ، هل فهمت... ان لدينا شجرتنا وكل شىء »

وأعيدت السماعة الى مكانها بعنف وصاح ينادى من فى الطابق العلوى : « يا أبى ـ يا أمى ـ أنتما الاثنان الموجودان فى الطابق العلوى ، هل لكما أن تنزلا ومعكما معدات عيد الميلاد ؟ ولا تنسيا النجم » .

فافترقا وابتسما ، لقد كان من المستحيل ألا تمتلىء النفس بالأمل فى هذا اليوم ، يوم عيد الميلاد . فان هذا فى الواقع كان كل ما يرمز اليه النجم .